

معالجة الأمراض النفسية

آية الله العظمى

الإمام السيد محمد الحسيني الشيرازي (دام ظله)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وآله الطيبين الطاهرين واللعنة الدائمة على أعدائهم أجمعين إلى قيام يوم الدين.

نعمة الابتلاء

قال تعالى: (أَحْسِبِ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ)(١).

هناك ارتباط وثيق بين أعمال الإنسان وبين النظام الكوني، فلو اتجه الإنسان إلى ما تقتضيه الفطرة من طاعة الله سبحانه وتعالى لنزلت الخيرات، وانفتحت أبواب البركات، بخلاف ما لو انحرف عن طريق العبودية، وتمادى في غيّه فانه يستوجب ظهور الفساد، ونشوب الحروب، وحدوث الكوارث الكونية كالزلازل والصواعق، فهذه الأمور كلها ترجع إلى أعمال الإنسان، فقد قال تعالى: (وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)(٢).

إلا إذا كان الأمر بحسب ما تقتضيه السنة الإلهية من الاستدراج والابتلاء، فاذا نزلت بلية أو مصيبة من مرض وغيره على فرد من الأفراد، فإن كان صالحاً كانت تلك فتنة ومحنة يمتحنه الله بها، فقد قال سبحانه وتعالى: (أَحْسِبِ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ)(٣) وواضح أن ذلك هو الآخر مكمل للإنسان ومقوم لوجوده وغايته.

وإن كان المبتلى غير صالح كان ذلك تنبيهاً له وعقاباً على أعماله ليرجع إلى صوابه ورشده، فقد قال تعالى: (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ * فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِم أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ)(٤).

إذن فالبلايا والمصائب من الأمراض وغيرها، هي نعم من الله على بني الإنسان، ليتعظوا ويتذكروا بها، ويتركوا المعاصي، فهذا مقتضى الحكمة الربانية في تمييز الطيب من الخبيث.

١ - سورة العنكبوت: ٢-٣.

٢ - سورة الأعراف: ٩٦.

٣ - سورة العنكبوت: ٢-٣.

٤ - سورة الأنعام: ٤٢ - ٤٤.

عينة من الابتلاء

فلو أخذنا جانباً من جوانب الابتلاء، كالأمراض التي تصيب بني الإنسان فهي على قسمين:

القسم الأول: الأمراض الجسمانية - البدنية -، وهي ما تختص بجسد الإنسان وتمتاز بكون تأثيرها مباشراً.

وكما يقول الأطباء بأن الأمراض التي تؤلم الإنسان تدفعه للبحث عن علاج لها.

القسم الثاني: الأمراض النفسية، إذ لا يحس صاحبها فيها بالألم المباشر، بل هي تتولد وتنمو وتتفاقم أحياناً دون أن يلتفت الإنسان إلى خطرها وعندما لا يستشعر الإنسان بآلام الأمراض النفسية بصورة مباشرة فإنه لا يندفع للبحث عن سبل العلاج، وبالنهاية يكون تأثيرها أكبر وأخطر من الأمراض البدنية. فالأمراض النفسية أشد صعوبة في العلاج من الأمراض الجسمية، إذ كثيراً ما لا يجد الإنسان علاجاً ناجحاً لها، وعندما تستفحل مثل هذه الأمراض على المبتلى بها ينعدم عنده صفاء وسلامة القلب؛ فيعيش في أوهام وتخيلات بعيدة عن الواقع، أو يعيش حالات الأمراض الحاجبة والمانعة عن رؤية الحقائق الغيبية الإلهية، وقد يموت قلبه بسبب هذه الأمراض الخطيرة، مثل مرض حب الدنيا وغفلة القلب وقساوته، وطغيان الغضب والحسد والتكبر والعجب وغيرها، وهذه الأمراض أخطر من الأمراض البدنية - التي منشؤها نتيجة اختلالات عصبية - لأن هذه الأمراض لا تتعدى آثارها وخطورتها عن هذه الحياة الدنيا بينما الأمراض النفسية كالرياء والنفاق تبقى آثارها وتبعاتها ملازمة للإنسان في حياته الآخروية.

لقد ذكر الأطباء أموراً عديدة في مجال الأمراض النفسية، والمعاناة التي ترافقها، نذكر لكم بعضاً منها على سبيل المثال:

يحسب نفسه بقرة!!

نقل بعض الأطباء أن شخصاً قبل ألف سنة كان يتصور بأنه بقرة، وكان يصرّ على الآخرين بذبحه.

بعض الأطباء كانوا يضحكون عليه، والبعض الآخر كانوا ينصحونه ليقنعوه بأنه ليس بقرة، ولكن كان إصراره يزداد يوماً بعد يوم، وكان يقول أذبحوني لتنتفعوا من لحمي.

آخر الأمر نقلوا الخبر إلى (ابن سينا) (٥) الذي كان قد دخل تلك المدينة حديثاً بعد غياب طويل، فقالوا له ما علاج هذا الممرض؟

قال: أنا سوف أعالجه بشرط أن لا يتدخل أحد في عملي فقال (والكلام لابن سينا): ادعوني في أحد الأيام لوجبة غداء، واحضروا ذلك المريض، فإذا أعطاني السكينة لأذبحه اقبلوا ذلك، ولا تأخذوا من يده السكين، وبعدها بأي أمر أمركم أطيعوني.

فجاء ابن سينا بعدما وجهوا له الدعوة، وجيء بالمريض إليه، وهو يحمل سكينة حادة بيده، وقال له: إذبحني إني بقرة.

٥ - أبو علي ابن سينا (٩٨٠م - ١٠٣٧م) فيلسوف وطبيب وعالم من كبار فلاسفة الإسلام وأطبائهم، عرف بالشيخ الرئيس، ولد في أفنشة قرب بخارى وتوفي في همدان، من مؤلفاته المطبوعة: كتاب القانون في الطب، والشفاء، والنجاة، والإشارات والتنبيهات، والحدود في الفلسفة والمنطق. انظر المنجد في الأعلام: حرف (أ).

فقال (ابن سينا): نعم، إنك بقرة ولا شك في ذلك.

- ففرح المريض كثيراً عندما وجد من يصدق أنه بقرة - بعدها قال ابن سينا لمن حوله: اربطوا رجليه ويديه وأتوني بطشت أو قدح كبير أضع لحمه فيه بعد أن أقطعه.

بعدها جاء ابن سينا وأخذ السكينة بيده ووضعها أمام رقبتة، وكان المريض مسروراً جداً، ثم ضرب ابن سينا قليلاً على بطنه، ثم قال للأسف إنك بقرة ضعيفة وليس في بدنك اللحم الكافي والجيد، فلا بد أن نعطيك العلف الكثير، وبعد شهر سوف نذبحك بعد أن تسمن، فقال المريض: لا بأس سوف أأكل العلف لكي أسمن. عندها أمر ابن سينا بأن يأتوا إليه بالحشائش الطبية التي كانت تنفع لمثل هذا المرض وتقضي عليه، ووضعوها أمامه، فأخذ المريض بالتناول منها بالشكل الكثير والمنتظم، وبعد شهر عادت إليه صحته بالكامل، بعدما كان يرفض تناول الأدوية ويصر على ذبحه.

الجرة الوهمية

نقل المرحوم الوالد (قده) (٦)، بأن شخصاً في سامراء أصيب بالجنون، وكان جنونه أنه عندما كان يمشي أو يريد الجلوس كان يهدأ ويتباطأ جداً، بحيث لا يهتز جسده، ولا يتحرك يميناً ولا شمالاً أبداً، وكان يقضي ليلة كاملة بالجلوس حتى الصباح وبصورة واحدة، وكان يقول بأن على رأسي جرة ماء فإذا اصطدمت الجرة بشيء فسوف تنكسر على رأسي وعندها سوف تنتهي حياتي، فلماذا كان لا يحرك رأسه ولا جسده أبداً، وإذا جلس في مجلس كان لا يلتفت يميناً ولا شمالاً خوفاً من الموت. فجاءوا به إلى الطبيب، فقال الطبيب: أنا أعالجه.

فأجلس المريض أمامه، وقال له: إن ما تتصوره وتقلوه صحيح بالكامل، وهذا المرض مكتوب في طب (جالينوس) وإذا ما سقطت الجرة من على رأسك انكسرت ومت بعدها، ولكن عندي الدواء الصالح لمرضك هذا. ففرح المريض كثيراً، وأخذ يتناول الأدوية التي وضعها له الطبيب، وبعد مدة من العلاج، قال الطبيب: الجرة التي على رأسك يمكن رفعها شيئاً فشيئاً، فإن حالة الالتصاق برأسك بدأت تزول. فقال المريض: لا بأس بذلك.

وبعد أيام هبأ الطبيب جرة بنفس تلك المواصفات التي وصفها المريض، وعلقها بالسقف بالشكل الذي يمكن الوقوف تحتها، ثم قال للمريض: قف في هذا المكان (وهو المكان الذي فوقه الجرة) دون أن ينظر إليها، وعندما وقف بالقرب من الجرة أمر الطبيب بالقاء الجرة التي هبأها، فسقطت على الأرض وانكسرت وأريق الماء الذي كان فيها، ثم قال للمريض: بان هذه هي الجرة التي كانت على رأسك فسقطت الآن، وانكسرت وأريق ماؤها، ولكن بقيت أنت سالماً على قيد الحياة، ففرح المريض كثيراً من قول الطبيب وعادت إليه حالته الطبيعية.

٦ - هو السيد الميرزا مهدي الحسيني الشيرازي (قده) ولد في كربلاء المقدسة (١٣٠٤هـ) عالماً تقياً، ورعاً عابداً، زاهداً كثير الحفظ جيد الخط، وكان صاحب كرامات، وهو (قده) من خيرة تلاميذ الشيخ محمد تقي الشيرازي (قائد ثورة العشرين في العراق)، توفي في (٢٨ شعبان عام ١٣٨٠هـ) ودفن في الحرم الحسيني الشريف.

الملوكية الوهمية

نقل أحد الخطباء هذه القصة: بانه كان في طهران مريض مصاب بكثرة التخيلات، فكان يتصور بانه ملك، وكان ينتظر من الناس أن يحترموه كثيراً، كما يحترم العبيد أسيادهم، ولا بد أن ينادوه أو يلقبوه بصاحب الجلالة (الملك المعظم)، وكلما كانوا يراجعون الأطباء لم يرون له تحسناً ولا شفاءً لحالته، فكان البعض يضحكون عليه، والبعض الآخر ينصحونه، دون أن ينفعه ذلك.

قال أحد الأطباء: أنا أعالجه، ولكن بشرط أن تهَيِّؤا لي بيتاً جيداً، وبعض الخدم، لكي أستطيع القيام ببعض الأعمال التي تناسب مقام الملوك والأمراء، وبهذه الطريقة أعالجه من مرضه. فلما هَيَّؤوا له ما طلب، دخل الطبيب البيت، فأخذ ينحني للمريض معظماً له، وقام الخدم بالأفعال والأعمال التي يؤديها حاشية الملوك عادة. وبعد مدة من ذلك العمل الذي قام به الطبيب، أخذ المريض بالاعتقاد بأن هؤلاء يتصورون بأنه ملك، وانهم مصدقون لما في نفسه، وفي تلك الفترة كان الطبيب يعطيه الأدوية المفيدة لعلاج حالته، ووصف له دواءً لابد أن يوضع على رأسه، ويبقى ذلك لمدة أسبوع كامل لكي يشفى تماماً، ولكن المريض (الملك الخيالي) رفض أن يضعوا له ذلك الدواء، والذي كان فيه مواد صمغية على رأسه، فابتكر الطبيب الحاذق طريقة ذكية لاستعمال الدواء، فقال الطبيب (مخاطباً المريض): يا صاحب الجلالة المعظم، لابد أن يوضع على رأسك بعد أسبوع تاج الملوكية، ونحن سوف نهَيِّئ لك ذلك، ولكن قبل أن نضع التاج الذهبي على رأسك، لابد أن نضع هذا الدواء لكي لا يتآلم رأسك من التاج.

فوافق المريض بوضع الدواء على رأسه، ومن ثم صنعوا له تاجاً من الورق السميك (الكارتون) وفيه شيء من المواد الطبية، وبعدها حلقوا رأسه كاملاً فوضع الطبيب التاج الورقي على رأس الملك - المريض - ، وقال له: لابد أن تبقي التاج على رأسك لمدة أسبوع كامل، حتى عند ذهابك إلى النوم، لكي يعلم الجميع بأنك ملك حقاً. (وهذا الكلام قاله الطبيب بعد ان انتهت مراسيم الاحتفال البهيج الذي أقامه الطبيب لهذا الأمر). وبعد أن قدموا التهاني والتبريك، وبعد أسبوع كامل، أثر ذلك الدواء الذي وضعه على رأسه بواسطة التاج الورقي، وذهب الجنون من رأسه كاملاً.

الطبيب الحاذق

ان هذا النوع من البلايا التي تصيب البعض قد تصيب الأمة بأكملها، فتكون الأمة مبتلاة إلى أن يتهيا لها من ينقذها، كما هو شأن الطبيب الحاذق الذي يعالج هذه الحالات المرضية الصعبة لينقذ أصحابها مما كانوا مبتلين.

وخير مثال لنا الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله) في إبلاغ رسالته السمحاء إلى الأمة أجمع، فقد ابتلي بأناس سيطر الجهل والكفر عليهم، وسيطرت عليهم الأمراض القلبية والنفسية بحيث قست قلوبهم، وماتت أرواحهم، فلم تكن لهم قلوب يعقلون بها، أو آذان يسمعون بها، (فإنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي

في الصُّور)(٧).

ونبيينا الأكرم (صلى الله عليه وآله) هو الطبيب الدوار كما قال الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) يحمل أدويته ومياسمه ومراهمه ليداوي أمراض القلوب ويحيي ميت النفوس ويعالج جميع الآفات والأدران التي أصابت قلوب الناس(٨).

علاج القلوب

وهذه هي مهمة الأنبياء (عليهم السلام) بل هي أشرف وأعظم المهام التي يضطلع بها الأنبياء (صلوات الله عليهم)، فأول مهمة شرع بها رسولنا الأكرم (صلى الله عليه وآله) هي المهمة المتعلقة بعلاج القلوب وشفائها؛ لتكون مستعدة لتقبل مبادئ الوحي وأحكام الشريعة السمحاء، فإن القلب المريض بأمراض الزيغ والرين وحجاب الظلمات لا يستطيع أن يبصر أنوار الحق ومصابيح الهداية الإلهية، ولذلك فإن رسولنا الأكرم (صلى الله عليه وآله) ابتداءً أولاً بتطهير القلوب وتزكيتها وتصفيتها عما علق بها من آفات وأدران الجاهلية الجهلاء، فقد عالج أمراض القلوب بأسلوب إعجازي تظهر فيه حكمة النبوة وألطف الوحي ليشفي الصدور بأصدق عاطفة، وأرق رحمة، ليخرجهم من ظلمات الجهل وأمراض القلب إلى نور العلم وشفاء الصدور وراحة الضمير وطمأنينة النفس وطهارة الروح، وفي سبيل ذلك تعرض لأقسى الشدائد وأجلها من الضرب والادماء حتى قال (صلى الله عليه وآله): (ما أودى نبي مثل ما أوديت)(٩)، وفي مقابل ذلك لم يقل فيهم إلا خيراً، حيث قال (صلى الله عليه وآله): (اللهم اغفر لقومي إنهم لا يعلمون)(١٠).

لأن الطبيب غايته ابراء المرضى وشفائهم؛ فلذلك يتحمل كل المشاق، فمنذ بداية الدعوة تجسدت شخصية الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله) الذي استطاع أن يكسب الكثير من الذين وقفوا معه صفاً واحداً لإعلاء كلمة الله، وتوسيع نطاق الدعوة الإسلامية، حتى قال عنه تعالى: (وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً)(١١) وذلك لتحقيق الهدف الذي جاء من أجله، وهو تجسيد الإنسانية، وإظهار كنوزها، والارتفاع بالإنسان إلى مستوى الجدارة الحقيقية بتمثيل خلافة الله على الأرض، كما أشار في قوله تعالى إلى ذلك، حيث يقول: (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً)(١٢) وذلك ذروة العلاج ومنتهاه وأسمى منزلة ولا

٧ - سورة الحج: ٤٦.

٨ - أنظر نهج البلاغة، الخطبة: ١٠٨، وفيها قوله (عليه السلام): (طبيب دوار بطبه، قد أحكم مراهمه وأحمى مواسمه، يضع من ذلك حيث الحاجة إليه، من قلوب عمي، وأذان صم، وألسنة بكم، متتبع بدوانه مواضع الغفلة، ومواطن الحيرة، لم يستضيئوا بأضواء الحكمة، ولم يقدحوا بزناد العلوم الثاقبة، فهم في ذلك كالآلغام السائمة والصخور القاسية).

٩ - المناقب: ج ٣ ص ٢٤٧ فصل مساواته (عليه السلام) - أمير المؤمنين - يعقوب ويوسف.

١٠ - تنبيه الخواطر ونزهة النواظر: ج ١ ص ٩٩ باب تهذيب الأخلاق و ص ١٨٦.

١١ - سورة النصر: ٢.

١٢ - سورة البقرة: ٣٠.

شيء فوقها، وهي الغاية فبالإضافة إلى تبليغ رسالة الله لهم، وقد أشار إلى هذا أيضاً في قوله تعالى: (هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)(١٣).

وقد ذكرنا في تفسير هذه الآية الكريمة أن: (هُوَ) الله (الَّذِي بَعَثَ) أي أرسل (فِي الْأُمِّيِّينَ) الأمي المنسوب إلى الأم المراد بهم العرب، سموا بذلك إما لأنهم من (أم القرى) أي مكة المكرمة - المسماة بذلك لأن القرى دحيت من تحتها - وأما لأن الغالب منهم لم يكونوا يعرفون القراءة والكتابة فهم - في جهلهم - كالذي خلق من الأم لا يعرف شيئاً، والبعث في الأميين لا يلزم أن يكون لهم وحدهم، حتى تدل الآية على خصوص نبوته (عليه الصلاة والسلام)(رَسُولًا) لأجل هدايتهم (مِنْهُمْ) أي من أنفسهم ومن أهل بلدهم. (يَتْلُوا) أي يقرأ (عَلَيْهِمْ) أي على أولئك الأميين (آيَاتِهِ) أي أدلته. أو آيات القرآن (وَيُزَكِّيهِمْ) أي يطهرهم تطهيراً علمياً، فإن المعلم الرقيب يطهر تلاميذه عن أدران القلوب والجوارح بحفظهم عن الرذائل والأعمال المنكرة.(وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ) أي أحكامه وشرائعه (وَالْحِكْمَةَ) بأن يعرفوا وضع الأشياء مواضعها، فإن الحكمة هي وضع الشيء موضعه. (وَإِنْ كَانُوا) أي هؤلاء الأميون. (مِنْ قَبْلُ) أي قبل أن يأتيهم الرسول (صلى الله عليه وآله)(لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ) أي في انحراف ظاهر، فلا عقائد صحيحة، ولا أعمال صالحة، ولا عادات طيبة، ولا أخلاق فاضلة، يعني أنه يوصلهم إلى أرقى مراقي الكمال، وإن كانوا قبل ذلك في أبعد متاهات الضلالة(١٤).

فقد كان (صلى الله عليه وآله) يدعوهم إلى العلم والعمل، لاتخاذهم من الضلالة، ونقلهم إلى عالم النور والفضيلة.

التمويه والكذب

إن التاريخ البشري احتوى على نماذج من الأنظمة والسلطات الداعية إلى العيش الهانئ والسعادة الشاملة، وكل من هؤلاء الدعاة يريد أن يصل إلى مبتغاه بالطريقة التي يراها مناسبة له، وعن طريقها يمكنه السيطرة على المجتمع، الفئة الأولى من تلك الأنظمة والسلطات هي فئة كاذبة في دعواها، وقد تغلبت على البشرية في أكثر الأدوار، واستخدمت التمويه والكذب والخداع، ولم تفكر ولو للحظة في مصلحة الفرد والأمة، أو في الحقوق الشخصية الإنسانية، وأفراد تلك الفئة ما يزالون مقبلين على الظلم والتسلط على رقاب الشعوب المسلمة خاصة، بشتى وسائل الجناية والعدوان، وحتى إذا بدر منهم ما يدل على عدالتهم فهو مجرد تمويه وسلوك عرضي للوصول إلى غايتهم المنشودة ومآربهم الخبيثة.

وهؤلاء هم السلاطين، الذين يسعون وراء مصالحهم الشخصية، ضاربين عرض الجدار جميع المصالح الإنسانية للمجتمع، كابحين جماح التطلع للعيش السليم لدى الجماهير صيانة لمنافعهم غير المشروعة.

١٣ - سورة الجمعة: ٢.

١٤ - تفسير تقريب القرآن: ج ٢٨ ص ٩٨ سورة الجمعة.

يقولون ما لا يفعلون

فعلى سبيل المثال في مجتمعنا هذا؛ البعض يقول: نحن أتباع الدين الإسلامي، ولا نريد الميل إلى الأفكار الخارجية المريضة، مع انهم في نفس الوقت يطبقون القوانين الغربية في بلادهم. نحن لسنا ضد التقدم والتطور ولكن ضمن حدود القوانين الإسلامية، والرسالة السماوية السمحاء، فالعقل والشرع لا يمنعان الاستفادة من التقدم، ولو من أهل الكفر والفسوق، فقد نقل عن الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) أنه قال: (الحكمة ضالة المؤمن، فالتقفها ولو من أفواه المشركين) (١٥).

ولكن ذلك ضمن ضوابط وأطر معينة، حيث وضع الإسلام شروطاً واضحة لا يمكن تجاوزها، ولا يمكن تعليق الأمل على هؤلاء في إصلاح حال المجتمع، وحل الكثير من قضايا المسلمين المستعصية على بعض القوى المهيمنة على مقدرات الشعوب الإسلامية وطموحاتها، فقد جاء في الحديث القدسي عن أبي عبد الله (عليه السلام) أنه قال أوحى الله تعالى إلى بعض أنبيائه في بعض وحيه إليه: (وعزتي وجلالي وعظمتي وارتفاعي لأقطعن رجاء أمل كل مؤمل يأمل غيري باليأس، ولأكسونه ثوب المذلة في الناس، ولأبعدنه من فرجي وفضلي، أيؤمل عبيدي غيري في الشدائد والشدائد بيدي، ويرجو سواي وأنا الغني الجواد، أبواب الحوائج عندي وبيدي مفاتيحها، وهي مغلقة) الحديث (١٦).

المعرفة بالإنسان طريق الإصلاح

أما الفئة الثانية من تلكم الأنظمة والسلطات فهي فئة غير كاذبة، ولكنها لم تأت بما كان كافياً لتحقيق أهدافها، وهم بعض المصلحين، أو الذين ادعوا الإصلاح، فهم رغم طرحهم الصادق في الغالب لدعواهم وأهدافهم، إلا أنهم لم يستطيعوا تحقيق أهدافهم من خدمة المجتمع البشري وتلبية حاجاته المادية والمعنوية؛ وذلك لأنهم لم يعرفوا حقيقة المتطلبات والحاجات الفطرية والروحية لهذا الإنسان، حيث إنهم - غالباً - يبحثون جانباً واحداً من هذه الحاجات، ويقتصرون على تلبية الجانب المادي للإنسان ويتركون الجوانب الأصلية والأساسية؛ ولهذا تبقى البشرية تعيش حالة من الفراغ الروحي، فهم لم يسدوا هذا الفراغ الحاصل، ولم يأتوا بالتعاليم الكافية لحل مشاكل المجتمع البشري. ولا فرق في ذلك بين المجتمع القديم والمجتمع الحديث، إلا أن مجتمعنا اليوم أصبح لديه نظرة واسعة، وبات أكثر تفتحاً وتحفزاً نحو الإصلاح.

أما المجتمع القديم فإنه رغم الجهل الشديد، إلا أن خاتم الأنبياء والمرسلين (صلى الله عليه وآله) استطاع أن يأخذ بيد الإنسانية ويهديها إلى الصراط القويم، رغم الآلام والمصاعب التي تعرض لها من المجتمع، فضلاً عن الأذى والمشاكل التي كان يواجهها من الأعداء.

١٥ - تنبيه الخواطر ونزهة النواظر: ج ١ ص ٨١ باب العتاب.

١٦ - إرشاد القلوب: ص ١٢٢ ب ٣٥.

العلاج الناجع لمشكلاتنا المعاصرة

أما مجتمعنا اليوم فقد ابتلى بحالة من اليأس، والسؤال هنا هو كيف يتم علاج هذه الحالة؟ والجواب على ذلك: ان العلاج لا يتم إلا بإيجاد ذلك الطبيب الماهر المطيع لله ولرسوله (صلى الله عليه وآله)، حتى يتسنى له استئصال ذلك المرض من أساسه، وبالتالي يسهل عليه قيادة الأمة إلى بر الأمان.

وهذا العمل ليس بالأمر الهين، حيث يتطلب منه أن يوجد أسلوب معالجة دقيقة وفعالة للفرد الإنساني من خلال اتباع العقيدة الألّهية، والشريعة الإسلامية، التي فرضت على الإنسان أن ينظر إلى الحياة نظرة تفاؤلية إيجابية، بأن يراها مثمرة باعتبار أنها مزرعة الآخرة، فعليه أن يستغلها أحسن استغلال، ويخلص نفسه من الكسل واليأس والتشاؤم، ويسعى للاستفادة من جميع أوقاته ولحظاته، ومواهبه وقواه وامكاناته، ويسخرها لتطوير ذاته من النواحي الفكرية والروحية والثقافية؛ ليساهم بعد ذلك بتطوير مجتمعه، وإلى هذا المعنى أشار الإمام السجاد (عليه السلام) في بعض أدعيته وهو يدعو ربه، حيث يقول: (ولا تؤيسني من الأمل فيك، فيغلب عليّ القنوط من رحمتك)(١٧).

وحيث قال الله تعالى في كتابه العزيز: (لا تَقْنُطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ)(١٨). فما دام الإنسان بطبيعته لديه ملكة حب الاستطلاع والتفحص، فإنه لابد أن يعلم أن الله قد خلق كل ما في العالم بعضه لبعض، وخلق الكل للإنسان (عبدي! خلقت الأشياء لأجلك وخلقتك لأجلي)(١٩)، وأن كل ما في الوجود منقاد لله تعالى، فعندما يحس بانجذابه إلى الطبيعة التي غدت ساجدة لله سبحانه وتعالى، فإنه حينئذ يتجاوب معها ويستفيد منها للوصول إلى الغاية المثلى التي من أجلها خلق، وبذا تكون نظرته إلى الحياة نظرة إيجابية واقعية، وهذا لا يحصل إلا لمن يحرز الاعتقاد الإيماني الإلهي، وبعبارة أخرى لا يرى غاية ولا حكمة ولا واجباً ولا تجاوباً، فنراه استولى على نفسه اليأس، وعندما يستولي اليأس على النفس الإنسانية يجعلها خائرة القوى ضعيفة الإرادة متشائمة لا ترى في هذه الحياة الدنيا أملاً أو طريقاً من التفاؤل.

فعن الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) أنه قال: (لا تكن ممن يرجو الآخرة بغير العمل...، يُعَجَّبُ بنفسه إذا عوفي، ويقنط إذا ابتلى... إن استغنى بطر وفطن، وإن افتقر قنط ووهن)(٢٠).

اللهم بحق محمد وآل محمد اصرف عني الآفات والعاهات واقض بالحسنى في أموري كلها ولا تكنني إلى نفسي طرفة عين أبداً اصلح لي في سريري. اللهم يا مقلب القلوب والأبصار ثبت قلبي على دينك واعصمني من همزات الشياطين يا أرحم الراحمين بحق محمد وآله الطيبين الطاهرين.

١٧ - الصحيفة السجادية، دعاءه (عليه السلام) يوم عرفة، الدعاء: ٤٧.

١٨ - سورة الزمر: ٥٣.

١٩ - مشارق أنوار اليقين: ص ١٧٩.

٢٠ - نهج البلاغة، قصار الحكم: الرقم ١٥٠.

من هدي القرآن الحكيم

النفس الإنسانية

- قال تعالى: (وَمَا أَبْرَأُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي)(٢١).
- وقال سبحانه: (وَكَذَلِكَ سَوَّلْتُ لِي نَفْسِي)(٢٢).
- وقال عز وجل: (وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ)(٢٣).
- وقال جل وعلا: (فَلَا تُلْهُمُونِي لَوْمُوا أَنفُسَكُمْ)(٢٤).

معرفة النفس

- قال تعالى: (وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ * وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ)(٢٥).
- وقال سبحانه: (سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ)(٢٦).
- وقال عز وجل: (يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً * فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَادْخُلِي جَنَّتِي)(٢٧).
- وقال جل وعلا: (وَنَفْسٌ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا)(٢٨).

آثار الاستغفار

- قال تعالى: (وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا)(٢٩).
- وقال سبحانه: (وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ)(٣٠).
- وقال عز وجل: (وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا

٢١ - سورة يوسف: ٥٣.

٢٢ - سورة طه: ٩٦.

٢٣ - سورة العنكبوت: ٦.

٢٤ - سورة إبراهيم: ٢٢.

٢٥ - سورة الذاريات: ٢٠-٢١.

٢٦ - سورة فصلت: ٥٣.

٢٧ - سورة الفجر: ٢٧-٣٠.

٢٨ - سورة الشمس: ٧-١٠.

٢٩ - سورة النساء: ١١٠.

٣٠ - سورة الأنفال: ٣٣.

رَحِيمًا)(٣١).

قال تعالى: (وَأَنْ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُغْفِرْ لَكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ)(٣٢).

عوامل انحراف النفس

وقال سبحانه: (أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ ... خَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً)(٣٣).
وقال عزوجل: (كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)(٣٤).
قال تعالى: (وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ)(٣٥).
وقال سبحانه: (كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ)(٣٦).

عوامل صلاح النفس

وقال عزوجل: (الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ)(٣٧).
قال تعالى: (فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ)(٣٨).
وقال سبحانه: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ)(٣٩).
وقال عزوجل: (وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا)(٤٠).

من هدي السنة المطهرة

النفس الإنسانية

قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): (أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك)(٤١).

٣١ - سورة النساء: ٦٤.

٣٢ - سورة هود: ٣.

٣٣ - سورة الجاثية: ٢٣.

٣٤ - سورة المطففين: ١٤.

٣٥ - سورة البقرة: ٢٦.

٣٦ - سورة غافر: ٣٤.

٣٧ - سورة الرعد: ٢٨.

٣٨ - سورة الأنعام: ١٢٥.

٣٩ - سورة يونس: ٥٧.

٤٠ - سورة العنكبوت: ٦٩.

٤١ - تنبيه الخواطر ونزهة النواظر: ج ١ ص ٥٩ باب العتاب.

وقال أمير المؤمنين (عليه السلام): (إن النفس لجوهرة ثمينة من صانها رفعها ومن ابتذلها وضعها)(٤٢).
وقال (عليه السلام): (أكرم نفسك عن كل دنية وإن سافتك إلى الرغائب، فإنك لن تعترض عما تبذل من نفسك عوضاً)(٤٣).

وقال الإمام الجواد (عليه السلام): (من أطاع هواه أعطى عدوه مناه..)(٤٤).
وقال أمير المؤمنين (عليه السلام): (أكرم نفسك ما أعانتك على طاعة الله)(٤٥).
وقال أبو عبد الله (عليه السلام): (احذروا أهواءكم كما تحذرون أعداءكم فليس شيء أعدى للرجال من اتباع أهوانهم وحصائد ألسنتهم)(٤٦).

معرفة النفس

قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): (من عرف نفسه فقد عرف ربه)(٤٧).
سئل رسول الله (صلى الله عليه وآله): كيف الطريق إلى معرفة الحق؟ فقال (صلى الله عليه وآله): (معرفة النفس).

فقال: يا رسول الله، كيف الطريق إلى موافقة الحق؟ قال (صلى الله عليه وآله): (مخالفة النفس)، قال: يا رسول الله، فكيف الطريق إلى رضا الحق؟ قال (صلى الله عليه وآله): (سخط النفس)، فقال: يا رسول الله، فكيف الطريق إلى وصل الحق؟ قال (صلى الله عليه وآله): (هجر النفس)، فقال: يا رسول الله، فكيف الطريق إلى طاعة الحق؟ قال (صلى الله عليه وآله): (عصيان النفس)، فقال: يا رسول الله، فكيف الطريق إلى ذكر الحق؟ قال (صلى الله عليه وآله): (نسيان النفس)، فقال: يا رسول الله، فكيف الطريق إلى قرب الحق؟ قال (صلى الله عليه وآله): (التباعد عن النفس)، فقال: يا رسول الله، فكيف الطريق إلى أنس الحق؟ قال (صلى الله عليه وآله): (الوحشة من النفس)، فقال: يا رسول الله، كيف الطريق إلى ذلك؟ قال (صلى الله عليه وآله): (الاستعانة بالحق على النفس)(٤٨).

وقال أمير المؤمنين (عليه السلام): (من عرف نفسه فقد انتهى إلى غاية كل معرفة وعلم)(٤٩).
وقال (عليه السلام): (أفضل الحكمة معرفة الإنسان نفسه ووقوفه عند قدره)(٥٠).

٤٢ - غرر الحكم ودرر الكلم: ص ٢٣١ ح ٤٦١٦ الفصل الأول في النفس.

٤٣ - غرر الحكم ودرر الكلم: ص ٢٣١ ح ٤٦١٥ الفصل الأول في النفس.

٤٤ - أعلام الدين: ص ٣٠٩ فصل من كلام سيدنا رسول الله (صلى الله عليه وآله).

٤٥ - غرر الحكم ودرر الكلم: ص ٢٣١ ح ٤٦٠٧ الفصل الأول في النفس.

٤٦ - الكافي: ج ٢ ص ٣٣٥ باب اتباع الهوى ح ١.

٤٧ - بحار الأنوار: ج ٢٠ ص ٣٢ ب ٩ ح ٢٢.

٤٨ - غوالي اللئالي: ج ١ ص ٢٤٦ الفصل العاشر ح ١.

٤٩ - غرر الحكم ودرر الكلم: ص ٢٣٢ ح ٤٦٣٨ الفصل الأول في النفس.

٥٠ - غرر الحكم ودرر الكلم: ص ٢٣٢ ح ٤٦٣٢ الفصل الأول في النفس.

وقال الإمام الباقر (عليه السلام): (سد سبيل العجب بمعرفة النفس)(٥١).

آثار الاستغفار

قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): (من أكثر الاستغفار جعل الله له من كل فرجاً، ومن كل ضيق مخرجاً ورزقه من حيث لا يحتسب)(٥٢).

وقال (صلى الله عليه وآله): (لكل داء دواء ودواء الذنوب الاستغفار)(٥٣).

وقال أمير المؤمنين (عليه السلام): (استغفر ترزق)(٥٤).

وقال الإمام الصادق (عليه السلام): (إذا أكثر العبد من الاستغفار رفعت صحيفته وهي تتلأأ)(٥٥).

وقال رسول الله (صلى الله عليه وآله): (من كثرت همومه فعليه بالاستغفار)(٥٦).

عوامل انحراف النفس

قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): (حبك للشيء يعمي ويصم)(٥٧).

وقال أمير المؤمنين (عليه السلام): (ومن عشق شيئاً أعشى بصره، وأمراض قلبه، فهو ينظر بعين غير صحيحة، ويسمع بأذن غير سمیعة)(٥٨).

وقال الإمام علي بن الحسين (عليه السلام): (إلهي إليك أشكو نفساً بالسوء أماره، وإلى الخطيئة مبادره، وبمعاصيك مولعة، ولسخطك متعرضة، تسلك بي مسالك المهالك.. كثيرة العلل طويلة الأمل إن مسها الشر تجزع وإن مسها الخير تمنع.. ميالة إلى اللعب واللهو، مملوءة بالغفلة والسهو تسرع بي إلى الحوبة وتسوفني بالتوبة)(٥٩).

وقال الإمام موسى بن جعفر (عليه السلام): (قال أمير المؤمنين (عليه السلام): من لم يتعاهد النقص من نفسه غلب عليه الهوى)(٦٠).

٥١ - تحف العقول: ص ٢٨٤ وصيته (عليه السلام) لجابر بن يزيد الجعفي.

٥٢ - اعلام الدين: ص ٢٩٤ فصل من كلام سيدنا رسول الله (صلى الله عليه وآله).

٥٣ - ثواب الأعمال: ص ١٦٤ ثواب الاستغفار.

٥٤ - غرر الحكم ودرر الكلم: ص ١٩٥ ح ٣٨٢٤ الفصل الخامس في التوبة.

٥٥ - عدة الداعي: ص ٢٦٥ فصل.

٥٦ - تنبيه الخواطر ونزهة النواظر: ج ٢ ص ١٣٦.

٥٧ - غوالي اللئالي: ج ١ ص ١٢٤ ح ٥٧ الفصل السابع.

٥٨ - نهج البلاغة، الخطبة: ١٠٩.

٥٩ - الصحيفة السجادية: المناجاة الثانية، مناجاة الشاكرين.

٦٠ - معاني الأخبار: ص ١٩٨ باب معنى الغايات ح ٤.

عوامل صلاح النفس

قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): (وعودوا قلوبكم الرقة، وأكثرُوا من التفكير والبكاء من خشية الله)(٦١).

وقال (صلى الله عليه وآله): (إذا أحب الله تعالى عبداً نصب في قلبه نائحة من الخوف، وإذا أبغض عبداً جعل في قلبه مزماراً من الضحك)(٦٢).

وقال أمير المؤمنين (عليه السلام): (غالبوا أنفسكم على ترك العادات تغلبوها وجاهدوا أهواءكم تملكوها)(٦٣).

وقال (عليه السلام): (دواء النفس الصوم عن الهوى والحمية عن لذات الدنيا)(٦٤).

وقال (عليه السلام) أيضاً: (حاسبوا أنفسكم بأعمالها، طالبوها بأداء المفروض عليها والأخذ من فنانها لبقائها، وتزودوا وتأهبوا قبل أن تبعثوا)(٦٥).

وقال (عليه السلام): (طوبى لمن غلب نفسه ولم تغلبه، وملك هواه ولم يملكه)(٦٦).

وقال (عليه السلام) أيضاً: (كفاك في مجاهدة نفسك أن لا تزال أبداً لها مغالباً وعلى أهويتها محارباً)(٦٧).

٦١ - اعلام الدين: ص ١٤٦ باب صفة المؤمن.

٦٢ - اعلام الدين: ص ١٤٦ باب صفة المؤمن.

٦٣ - غرر الحكم ودرر الكلم: ص ٢٤٣ ح ٩٣٤ الفصل الأول في النفس.

٦٤ - غرر الحكم ودرر الكلم: ص ٢٣٥ ح ٧١٨ الفصل الأول في النفس.

٦٥ - غرر الحكم ودرر الكلم: ص ٢٣٦ ح ٧٤٠ الفصل الأول في النفس.

٦٦ - غرر الحكم ودرر الكلم: ص ٢٤٣ ح ٩٣١ الفصل الأول في النفس.

٦٧ - غرر الحكم ودرر الكلم: ص ٢٤٣ ح ٩٣٨ الفصل الأول في النفس.